مشكلة الرأي العام في الدولة الديمقراطية

— ٢ —

بقلم : الاستاذ عبد الجليل الطاهر

١ ـ الانتخاب العام ٢ ـ التصويت السري ٣ الغاء الملكية كشرط في اعضاء مجلس العموم ٤ ـ دفع رواتب لاعضاء البرلمان ٥ ـ تكافؤ المقاطعات في الانتخابات ٦ ـ برلمانات سنوية . وقد تحققت اغلب هذه المطالب ما عدا البرلمانات السنوية (١) .

ان اول من اطلق واستعمل اصطلاح (الرأي العام) هو « جون سالزبوي » في سنة ١١٥٩ ، ولم ينشأ انذاك خلاف عن موضع مركز الثقل على أي الشطرين من هذا الاصطلاح هل كلمة الرأي أم كلمة العام . ولكن لم تمض بضعة قرون حتى نالت فكرة « الرأي العام » اهتماما كبيراً خاصة بعد حدوث التطورات الاخيرة في مفاهيم الدولة ، فاصبحت ارآء الإفراد والجماعات معايير جيدة في تقرير بعض المظاهر الخاصة للسياسة العامة . وما ان حل عصر الفلسفة التجريبية البراكماطيقية « فلسفة الذرائع » حتى صار الرأي العام هو المعوّل عليه في خلق التيارات الفكرية والاقتصادية والسياسية . (٢)

طبيعة الرأي العام : ان كلمة العام تعني بكل بساطة وصفاً لكلمة الرأي ولا بد انها تشير الى نوع معين ، أو حيز او منطقة يشغلها الرأي . وليس من السهولة التوصل الى نتائج مقنعة لما تشمله هذه الكلمة ، ولاجل ان نتوصل الى ذلك لابد من ملاحظة ما يلي :

١ ـ تطابق كلمة « العام » للفكر السياسي والقانوني

٢ ـ ان كلمة « العام » تتضمن الطبيعة الاجتماعية .

فالذين يقولون بان « العام » اصطلاح قانوني او سياسي يميلون الى الاعتقاد بان كل رأي يتصل بالحكومة او الدولة ربما يكون رأياً عاما ، بينما الجماعة الاخرى التي تؤكد على الطبيعة الاجتماعية تقول بان الرأي العام ما هو إلا جزء حقيقي من الرأي الذي يتصل بالدولة . (٣) وقد عرف « لويل » كلمة العام بقوله : « هم الافراد الراغبون في المحافظة على تصميم الاكثرية » وقال « لماز » : « إن المعضلة الرئيسية للعام هي المشاركة » وناقش فكرة عدم استطاعة الجماهير التأثير فيما دعاه « المحيط غير المنظور » ـ وتتطلب كلمة العام وجود بعض المثرفين الذين هم ليسوا حكاما ولا قضاة يهتمون بتقديم بعض الاسس للاحزاب حين تنشب المنازعات وتتصادم المصالح وتتباين المواقف ـ ويعرف آخرون الرأي العام « اولئك الذين باستطاعتهم التأثير في سلوك الحكومة » وهذا القول يعني من وجهة عملية المساهمة في شؤون الحكومة . وهذه الفكرة تتأرجح بين « العام » و « الرأي » ولا تضع مركز الثقل على أحدهما . وقال البعض الآخر بان « العام » هم اولئك الذين تقع على عاتقهم اعباء ومسؤليات الحكومة . وفي هذا القول لا نجد اثراً لعنصر المساهمة الذي لا يمكن قبوله في مفهوم الدولة الديمقراطية . (٤)

ان وجود الدولة يتطلب بكل بساطة مساهمة الشعب السياسية وهذه المساهمة هي نقطة البدء المنطقية لاستقصائنا كلمة « العام » .

---

(١) دائرة معارف العلوم الاجتماعية مج [٢] ص ٣٥٢ مادة « الجارنتزم » بقلم هـ . داوسن .

(٢) نفس المصدر ، راجع كتاب « دت » الحركة الجارنتية » وراجع المجلد [٥] ص [٣٠٨-٣١٠] مادة « الجارنتزم » بقلم ر. بوستكيت . من دائرة معارف العلوم الاجتماعية .

(٣) ولسن ، عناصر العلوم السياسية الحديثة ، الفصل العاشر « طبيعة الرأي العام » وكل هذه المصادر [بالانكليزية]

(٤) ولسن ، عناصر العلوم السياسية الحديثة ، الفصل العاشر [بالانكليزية]

الرأي العام والدولة : والآن نريد ان نتبين اثار الرأي العام في انواع الحكومات ، ففي الحكومات المطلقة لا وجود للرأي العام في « التنين » الذي يشمل الرعايا الخاضعين لحاكم مطلق او لحكم الاليكارلي « حكم الاقلية » بعد إبرامهم للعقد الاجتماعي ـ الذي بحثه جمهرة من الكتاب امثال « هوبز » و « جون لوك » و « روسو » فهوبز لم يكترث بالرأي العام . أما روسو فقد عبر عن المساهمة الفعالة بما يسمى « الارادة الغالبة » (٥) ويرى هوبز « ان الدولة تتألف من ذرات اجتمع بعضها الى بعض فكان من اجتماعها الدولة ، وكما ان العالم الطبيعي يعتمد في تكوينه على الحركة التي بين اجزائه وما فيها من جذب ومقاومة ، كذلك المجتمع لم يقم الا على اساس من الحركة والمقاومة بين الافراد ، فقد كانت الانسانية في حالتها الطبيعية الاولى في عراك متصل عنيف ، لا ينقطع الحرب بين أفرادها ولهذا كان احتفاظ الانسان بذاته هو الخير الاسمى . كان الناس في حالتهم الفطرية الاولى لا يذوقون للسلم طعما ، يتنازعون وينظر كل فرد نظرة ملؤها الخوف والشدة فلم يجدوا بداً من التعاقد والتعاهد فاتفق الجميع على ان يتنازل كل انسان عن جزء من حريته المطلقة فتصبح مقيدة بمصالح المجموع ، هذا التعاقد هو اساس الاجتماع والقاعدة التي تقوم عليها الدولة ، ولا يمكن تحقيقه الا اذا خضع الجميع لفرد واحد منهم تتمثل في شخصية الدولة وتكون ارادته هي القانون النافذ وليس الصواب والخطأ والشر والخير والفضيلة والرذيلة الا ما تريده هذه القوة الحاكمة (٦) ويسمى هوبز الدولة بالتنين الجبار لانها تبتلع في جوفها كل الافراد الذين تنمحي شخصياتهم وارادتهم امام شخصيتها وارادتها . ولم يكترث للرأي العام والبرلمان (٧) واما « جون لوك » (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) . فقد أكد على وجوب وضع الحكم بيد الاكثرية . وقال « روسو » : تتكون الحكومات بنتيجة العقد الاجتماعي الذي يتفق عليه البشر وانه عرضة للتغيير . اما اوجه الاختلاف والتشابه بين هوبز وروسو فاهمها :

١ ـ كلاهما يرى ان الدولة أساسها التعاقد بين الافراد

٢ ـ يذهب هوبز الى ان حالة الانسان الطبيعية كان قوامها النفور والعداء بين الافراد وانهم تعاقدوا ليأمن الانسان شر اخيه . ويرى روسو ليسوا اعداء متناكرين بل ان الناس متحابون بفطرتهم وقد تعاقدوا على الاجتماع لكي يوحدوا جهودهم في رقي الانسانية وكمالها .

٣ ـ يرى هوبز ـ ان القوة هي الحق ـ وان الملك مطلق الارادة ، بينما يرى روسو ان الناس تعاقدوا على ان يتمتع كل الافراد بحقوق متساوية وواجبات متساوية لا يمتاز منهم فرد على فرد فالحكومة ديمقراطية ـ وكل فرد لا بد ان يكون مربوطاً بالارادة العامة يصبح منبوذاً سياسياً ولكن سرعان ما ظهرت خرافة العقد للعلماء ، وانه مجرد خيال ، إذ لا توجد أدلة تاريخية له ، وانه يضع قيام الجماعة بموجب العقد . (٨)

ولكن مفهوم الرأي العام اخذ يتعاظم ويزدهر في العصور الحديثة ، حتى اصبح عنوان النظم الديمقراطية ، بل هو الوسيلة الوحيدة التي يلجأ اليها الحكام عند كل حدث مهم ، وصار من اهم واجبات الطبقة الحاكمة ادراك الرأي العام ومعرفة اتجاهه ، وأمسى شغل الحكومات

(٥) روسو ، العقد الاجتماعي [سنة ١٧٦٢] [بالانكليزية]

(٦) عبدالمجيد عباس ، اصول القانون .

«٧» هوبز ، التنين « ان معيار العدل هو ارادة الحاكم المطلق » « بالانكليزية » راجع ، هيس ، التاريخ الثقافي والسياسي ، مج «١» « بالانكليزية »

«٨» مصطفى كامل ، القانون الدستوري .

ميكايفر ، المجتمع ، ترجمة الدكتور عبدالمجيد عباس ولسن ، عناصر العلوم السياسية الحديثة ، الفصل الخامس . (بالانكليزيه)

الشاغل اثارة وتشجيع الرأي العام واتخاذه سلاحا لتذليل الصعوبات التي تعترض سبيلها . ولا يقتصر هذا الامر على الحكومات الديمقراطية بل حتى في الدكتاتورية ذات الحزب الواحد ـ ومن هنا تكون المقاومة عديمة الجدوى وهو ما حصل بالضبط في المانيا سنة ١٩٣٤ بعد انسحابها من عصبة الامم ـ وان العلاقة الوثيقة بين الدولة والرأي العام أمر عملي وحقيقي ويجب ان ندرك :

١ ـ ان الرأي العام يمثل الارادة الغالبة .

٢ ـ الرأي العام يمثل المساهمة الفعالة في النظم الديمقراطية.

واذا ما سلمنا بذلك فان معنى كلمة « العام » تتجلى باولئك الذين لهم حق المساهمة في الشؤون الحكومية ؛ وهذه الفكرة تعين نهائياً المنطقة التي يشغلها الرأي والتي يستقر عليها مركز الثقل في التنظيم السياسي الديمقراطي. وتؤكد الديمقراطية الحديثة على وجوب مساهمة المواطنين واصبح ما يريده الشعب المعيار الحقيقي في العلاقات الاجتماعية (٩) .

العوامل المؤثرة في الرأي العام :

من العوامل الفعالة : (١) المؤسسات الاجتماعية (٢) المواد القانونية التقليدية (٣) القيم الفلسفيه . فيقول (ليون ديكي) وهو من العلماء الجمعيين « بلوز الست » : ان في كل مجتمع حاجات وتقاليد ومنظمات ومؤسسات التي تكون القوانين وواجب الحكومة وضع هذه النزعات على شكل قوانين (١٠) وان القيم الفلسفية واضحة كل الوضوح في الدول الدكتاتورية (١١) وتقول وجهة النظر الديناميكية « ان الرأي العام يتكون من موجة فكرية تتجه نحو القوانين والنظم وحتى التقاليد والعادات التي ما هي الا براهين قاطعة على وجود الرأي ، وخاصة حين تنظم الموجات والتيارات الفكرية من قبل المنظمات

« ٩ » راجع الكتب الآتية « بالانكليزية » :

ا ـ مريام ، الديمقراطية الحديثة والحكم الاستبدادي الحديث .

ب ـ لبان ، الرأي العام .

والمؤسسات الاجتماعية .

الا ان علم النفس الذري يؤمن بالانفصال على اساس نظرية تورندايك (المنبه ـ الرجع) اذ يصبح عمل الانسان محصوراً بالمنبه والرجع ، وحيث لا تكون للفرد الحرية التامة في الاختيار الواسع ، لا تصبح قيمة لاعتبار الرأي العام قوة مؤثرة ـ فالقوى المؤثرة هي ما وراء الرأي العام وكلما كان مدى اختيار الفرد واسعاً يصبح الرأي مهما ـ ومتى نفكر بالرأي العام في معناه النابض بالحياة نفكر بكل تأكيد بحرية الانسان القصدية، ويصير من واجب الدولة الاهتمام به وتطمينه . فالرأي يمكن ان يكون فكرة واحدة او مجموعة من الافكار لها بعض التفوق بين الآراء ووجهات النظر المتضاربة ؛ حتى ان الاستاذ « هولمز » يقول « ان كل رأي يميل لان يصبح قانوناً » اما اصحاب النظرية الجبرية فيؤكدون على عدم وجود اي تأثير للفرد في تكوين التاريخ البشري (١٢)

« ١٠ » ، « ١١ » ، « ١٢ » راجع الكتب الآتية :

لاسكي ، قواعد العلوم السياسية « بالانكليزيه »

كنك شوان هشايوء البلور الزم السياسية « بالانكليزيه »

سدويك ، عناصر العلوم السياسية « بالانكليزيه »

كوكر ، الفكر السياسي الحديث « بالانكليزية »

ولسن ، عناصر العلوم السياسية الحديثة « بالانكليزية »

ثانوية الرجاء الاهلية

والقسم الداخلي

بناية صحية دراسة متقنة مدرسون اخصائيون

لا تنسى ايها الطالب هذا المعهد الكبير الذي يشرف على ادارته الاستاذ الكبير محمد زكي الغالي والذي ضرب آخر رقم قياسي في النظام والفن وتغذية العلوم على ايدي مدرسين من خيرة اساتذة العراق وخارجه ، بقسميه النهاري والمسائي ، في السنوات الماضية . ولا تنسى القسم الداخلي الذي اعد اخيراً لها والذي كفل كل راحة للطالب الذي ليس له مسكن ولا اهل في العاصمة . فدونك فالتحق بها وسجل تفسك فستجد عناية تفوق عناية الابوين ؟

٢٠٢